الباب الثالث :

الخصائص الفنية في الكتاب وقيمه النقدية والجمالية.

الفصل الأول : الأسلوب .

ياقوت الحموي الأديب الشاعر صاحب الأسلوب الأدبي الجيد ، كان قد ساير أسلوب العصر الذي عاش فيه من استخدامه للسجع والمحسنات البديعية مع شيء من التكلف ، فصاحبنا من أولئك المؤلفين الذين تركوا في كتبهم بعض النماذج الجيدة من الجمل النثرية الرائعة ، فقلما نجد ترجمة من تراجمه في معجمه للأدباء إلا وفيها من جمال العبارات ، وجيد التركيب ، ومستحسن الألفاظ ، وقد أثنى عليه من ترجموا له يقول صاحب ذيل تاريخ بغداد : " وله النظم الحسن والنثر الجيد "(١) .

ولم ينفصل ياقوت عن الأسلوب الذي اتبعه العلماء في مقدمة كتبهم ، فنجده يبدأ كما بدءوا هم ، فبدأ بحمد الله والثناء عليه والشكر له وما هذا إلا لقرب ياقوت من ربه يقول أبو الفتوح التوانسي :

" والذي نستطيع أن نستشفه من خلال هذا التحميد والصلاة على النبي الكريم أن علماءنا السابقين ، ومنهم ياقوت كانوا يربطون دائما بين تفكيرهم العلمي وصلتهم بالخالق عز شأنه ؛ إذ هو الذي يهديهم ، ويرشدهم إلى سواء السبيل ، ويعينهم على البحث ويوفقهم فيما يستنبطونه من مسائل العلم ويفتح أمامهم أبوابه المغلقة "(٢) .

وياقوت يبين السبب في تأليفه هذه الموسوعة الضخمة فهو لم يؤلفها ليطلب المال والجاه ، ولا ليتقرب بها إلى سلطان أو ملك ، إنما قام بها ليحمي عرضه ونفسه يوم العرض على الله ، وهذا يدل على اقتناعه التام بأن علم الترجمة من العلوم التي تخدم الدين ويرضى

(١) ذيل تاريخ بغداد : ابن النجار البغدادي : ٩ / ٢٥٣ ، ط : دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، تحقيق : قيصر أبو فرح .
(٢) " ياقوت الحموي الجغرافي الرحالة الأديب " : ٢٠٨ .

عنها الله ، ويطلب ممن يقرأ كتابه هذا أن يترحم عليه لعلمه بقول النبي : إن عمل ابن آدم ينقطع ويبقى له ثلاث أحدها علم ينتفع به وهو قد ترك علما نافعا بلا شك ، والعمل الآخر الذي لا ينقطع بعد موت ابن آدم هو الدعوة الصالحة لذا فهو يطلب من قارئ المعجم أن يترحم عليه لعل هذا الدعاء ينفعه في الآخرة ، يقول : " وإنما تصديت لجمع هذا الكتاب لفرط الشغف والغرام ، والوجد بما حوى والهيام ، لا لسلطان أجتديه ، ولا لصدر أرتجيه . غير أني أرغب إلى الناظر فيه أن يترحم علي ، ويعطف جيد دعائه إلي ، فذلك ما لا كلفة فيه عليه ، ولا ضرر يرجع به إليه ، فربما انتفعت بدعوته ، وفزت بما قد أمن هو من معرته "(١).

وفعل ذلك أيضا في مقدمته لمعجمه الآخر الذي وضعه في البلدان حيث بين أن السبب في تأليفه له هو اتباعه لقول الله تعالى الذي يحثنا فيه على أن نسير في البلاد لنرى ما فعله بغيرنا نتيجة لغضبه عليهم ، يقول الحموي : " وهداني إليه النبأ العظيم ، وهو قوله عز وجل ، حين أراد أن يعرف عباده آياته ومثلاته ، ويقيم الحجة عليهم في إنزاله بهم أليم نقماته : " أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ" **سورة الحج** : ٤٦ . فهذا تقريع لمن سار في بلاده ولم يعتبر ، ونظر إلى القرون الخالية فلم ينزجر ، وقال وهو أصدق القائلين :" قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ " **سورة الأنعام** : ١١ ، أي انظروا إلى ديارهم كيف درست وإلى آثارهم وأنوارهم كيف انطمست ، عقوبة لهم على اطراح أوامره ، وارتكاب زواجره إلى غير ذلك من الآيات المحكمات ، والأوامر والزواجر المبرمة " .(٢)

(١) " معجم الأدباء : ١ / ١٢ .
(٢) " معجم البلدان : ١ / مقدمة الحموي .

وهذا يؤكد على حسن خلق ياقوت فمن كان خلقه القرآن ، وأعماله اتباعا لأوامره بدون شك سيكون صاحب خلق حسن وعمل حسن .

لكن هذا المعنى نقله ياقوت بتصرف من أبي دلف ، ووجد هذه المقولة في كتاب عتيق لم يذكر ياقوت اسمه ، يقول ناقلا منه : " وبدأت بحمد الله والثناء على أنبيائه بذكر المسالك المشرقية واختلاف السياسة فيها وتباين ملكها وافترق أحوالها وبيوت عبادتها وكبرياء ملوكها وحكوم قوامها ومراتب أولي الأمر والنهي لديها لأن معرفة ذلك زيادة في البصيرة واجبة في السيرة قد حض الله تعالى عليها أولي التيقظ والاعتبار وكلفه أهل العقول والأبصار فقال جل اسمه : أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ..." (١) .

فسعة اطلاع ياقوت وقراءته لجل الكتب التي كتبها أصحابها في مجال البلدان أثرت عليه وعلى أسلوبه ، وهذا التأثر يتضح في المقدمة ، وقد استمر هذا التأثر في بقية أجزاء الكتاب ولم يقتصر على المقدمة فقط .

وليس في هذا عيب على ياقوت ، فلولا أخذ اللاحق من السابق ، ولولا إعادة الكلام لنفد ، " ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم ويبرزوها في معارض من تأليفهم ويوردوها في غير حليتها الأولى ويزيدوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها "(٢) .

وياقوت قد فعل ما يجعله أحق بالسبق من أبي دلف في هذا الكلام ، فقد تناوله بشمولية ، وقام بتفصيل القول في أهمية كتب البلدان ، واستشهد بآيات أخرى من القرآن

---

(١) " المصدر السابق " : ٣ / ٤٤١ ، طبعة دار الفكر .

(٢) " الصناعتين الكتابة والشعر " أبو الهلال العسكري : ١ / ١٩٦ ، الباب السادس : في حسن الأخذ وحل المنظوم ، الفصل الأول : في حسن الأخذ ، تحقيق علي محمد البجاوي ، محمد أبي الفضل إبراهيم ، ط : المكتبة العصرية / بيروت – لبنان ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م

الكريم ، ولم يكتف بما ذكره أبو دلف ، وقام بشرح تلك الآيات وبين الحكمة من حث الله تعالى الناس على معرفة البائد من الأمم ، والتعرف على السبب الذي به خسف الله بهم الأرض وباد من عليها ، وابتعد بالكلية عن سوء الأخذ من السابق ، فهو لم ينقل كلام أبي دلف كما وجده ، كذلك لم يكتف بالمعنى الذي تناوله بل زاد في الألفاظ والمعنى فكسا عظام كلامه ، وزين معاني ألفاظه ، وزاد وبدل ، فوصل إلى حسن الأخذ وناء بنفسه عن سوء الأخذ .

" إن تكوين الأسلوب أهم المظاهر لبراعة الكتاب والشعراء ، وأوضح معرض لقوة الإدراك ويقظة الشعور وجمال الذوق ؛ لذلك كان الكاتب الأمين ذو الطبع الأدبي الصادق منصرفا إلى تخير الكلمات الفصيحة الدقيقة المعنى ، المتلائمة مع أخواتها ، حتى تطمئن عناصر العبارة في موضعها دون إكراه ، وحتى يجتمع الأسلوب بين وضوح التفكير وجمال التصوير "(١) .

وقد بينا أسلوب ياقوت في شعره ووضحنا الأغراض التي كتب فيها ، وبقي أن نبين في البحث أسلوب ياقوت النثري .

يقول الذهبي في ترجمته لياقوت : " وكان شاعرا متفننا جيد الإنشاء " ولم يكتف الذهبي بذكر هذه المقولة بل ذكر ما يؤيد مقولته قائلا : " يقول في خراسان وكانت لعمر الله ذات رياض أريضة ، وأهوية صحيحة مريضة ، غنت أطيارها ، وتمايلت أشجارها ، وبكت أنهارها ، وضحكت أزهارها، وطاب نسيمها فصح مزاج إقليمها أطفالهم رجال ، وشبابهم أبطال ، وشيوخهم أبدال ، فهان على ملكهم ترك تلك الممالك .

وقال : يا نفس الهوا لك ، وإلا فأنت في الهوالك " .

---

(١) " الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية " أحمد الشايب : ٤٨ ، طبعة مكتبة النهضة المصرية الطبعة الرابعة .

إلى أن قال : " فمررت بين سيوف مسلولة ، وعساكر مغلولة ، ونظام عقود محلولة ودماء مسكوبة مطلولة ، ولولا الأجل لألحقت بالألف ألف أو يزيدون "(١) .

ومن المحدثين من أثنى أيضا على أسلوب ياقوت في كتاباته ، يقول أبو الفتوح التونسي : " وياقوت بالرغم من أنه رومي الأصل إلا أن لغته العربية في الكتابة قد وصلت إلى مستوى يجاري فيه أدباء عصره فهو يؤثر السجع ويلتزمه ، ويستخدم المحسنات البديعية ، ويستشهد بالشعر ، فلم يخرج في ذلك على مألوف عصره ، وإن بدا متكلفا بعض التكلف "(٢) .

وحقيقة عند التحدث عن أسلوب ياقوت لابد وأن نتعرض لرسالته التي أرسل بها إلى القفطي ، ففيها من التواليف البليغة والعبارات الجزلة ما يجعل ياقوت في الطبقة الأولى من متقني الصنعة الأسلوبية ، فكثر فيها السجع والجناس ، وكثرت العبارات التي تحمل نفس المعنى ، وهو في ذلك الدرب يسير على نهج علماء ذلك العصر ، كما استطاع ياقوت أن يوظف القرآن الكريم في رسالته ويدخل بعض آيات منه دون أن يشعرنا بذلك ودون أن تؤثر على سياق الكلام ، من ذلك ذكره لقول الله تعالى : " يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ " (الحجرات : ١) .

وقد وردت هذه الآية في خضم حديثه عن فضل القفطي عليه ، وكيف أنه يفتخر بمعرفته به ، ويشكر الله تعالى على أن من عليه بهذه المنة العظيمة وهي هدايته لهذا العالم

(١) " سير أعلام النبلاء " للذهبي : ٢٢/ ٣١٢ .
(٢) " سلسلة أعلام العرب " ص : ٧٢ ، العدد رقم ٩٣ بعنوان " ياقوت الحموي الجغرافي الرحالة الأديب " .

الجليل ، ويشرح لنا السبب في ذكره هذه الآية يقول : " لا حرمنا الله معاشر اوليائه مواد فضائله المتتاليه ، ولا أخلانا كافة عبيده من أياديه المتوالية " .

وعندما تحدث عما حدث في خراسان بعدما دخلها التتار وخربوها ، واضطر حاكمها إلى الهروب أمام العدوان المغولي تاركا بلاده خاوية على عروشها استشهد ياقوت بآية من آيات الذكر الحكيم تصف هذا الهروب مستنكرا ، يقول : " ومن العجب العجاب أن سلطانهم المالك ، هان عليه ترك تلك الممالك ، وقال لنفسه الهوى لك ، وإلا فأنت في الهوالك ، وأجفل إجفال الرال ، وطفق إذا رأى غير شيء ظنه رجلا بل رجال "(كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ)

وتلك الآية فسرها الطبري وابن كثير(١) على أن الله يخبرنا بأنه قد أورث مصر لبني إسرائيل بعد أن أغرق فرعون وجنوده في اليم بعدما خرجوا وراء سيدنا موسى ومن معه يقتلوهم ، وهذه تتفق مع خروج أهل حاكم خراسان من بلده وكذلك سكانها ، ولكن الفارق كما يقول ياقوت : " لكنه عزوجل لم يورثها قوما آخرين ، تنزيها لأولئك الأبرار عن مقام المجرمين ، بل ابتلاهم فوجدهم شاكرين ، وبلاهم فألفاهم صابرين ، فألحقهم بالشهداء الأبرار ، ورفعهم إلى درجات المصطفين الأخيار (... وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)(البقرة: ٢١٦)

(١) انظر " جامع البيان في تأويل القرآن " الطبري : ٢ / ١٣٥ ، تحقيق أحمد شاكر ، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م (١ – ٢٤) ، " تفسير القرآن العظيم " ابن كثير : ٣ / ٤٦٦) ، تحقيق : سامي بن محمد سلامة ، الناشر : دار طيبة للنشر والتوزيع ، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م (١ – ٨) .

وبرر ياقوت السبب في ابتلائهم بهذا البلاء مع كل ما فيهم من الصفات الحسنة التي ساقها عندما تحدث عن تلك البلاد وأهلها، وأخبرهم بما يشد من أزرهم ويخفف عنهم مصيبتهم فذكرهم بقول الله تعالى من سورة البقرة الذي سقناه سابقا، وهنا البلاغة فبأقل الكلمات وبحسن توظيف كلامه تعالى في المواقف وصل إلى مراده ومبتغاه .

وخلاصة القول في رسالته تلك :

(١) استفتح الحموي رسالته بتوضيح الراسل والمرسل إليه ، سيرا على أصول كتابة الرسائل ، وعملا بقواعد افتتاح الرسائل ، وذلك بالطبع بعد البسملة والحمدلة ، يقول الحموي : " كان المملوك ياقوت بن عبد الله الحموي كتب هذه الرسالة ..... إلى حضرة مالك رقه الوزير جمال الدين القاضي الأكرم أبي الحسن علي بن يوسف ....." .

وقد آثر الحموي الأسلوب الأول من أسلوب الكتابة التي تكلم عنها القلقشندي في كتابه " صبح الأعشى "[(١)] ، وهو افتتاحه لرسالته بذكر الراسل ثم المرسل إليه ، وهذا ما آثره النبي – صلى الله عليه وسلم – ومن بعده الصحابة – رضوان الله عليهم – ، ونراه جمع مع هذا الأسلوب ، الأسلوب الخامس أيضا الذي بينه القلقشندي[(٢)] ، حيث ذكر المكان والتاريخ والسبب في كتابته لتلك الرسالة ، ولم يكتف بذكر الراسل والمرسل إليه .

(٢) راعى ياقوت حفظ الألقاب ، يقول : " إلى حضرة مالك رقه الوزير" ، " المولى الوزير" .

(٣) كما أكثر من الدعاء ، فانتقل من الدعاء على التتار بقوله " أبادهم الله " ، إلى الدعاء للقفطي الوزير فأكثر ، فدعا له عندما وضح السبب في إرساله هذه الرسالة بعد أن

---

(١) " صبح الأعشى في صناعة الإنشا " القلقشندي : ٦ / ٣١٥ ، تحقيق د . يوسف على طويل، ط : دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م ، (١ – ١٤) .
(٢) " المصدر السابق " : ٦ / ٣٢١ .

كتبها ولم يقم بإرسالها وقت كتابتها والسبب خوفه من أن يأخذها منتحلي النظم وينسبوها لأنفسهم ، كما دعا له مرة أخرى وذلك في الرسالة التي كان قد كتبها .

(٤) تخلص الحموي من مقدمته التي أثنى فيها على القفطي الوزير ودعا له فيها بقوله " وبعد " جريا على عادة القدماء في التخلص .

(٥) استعان بالسجع ، والذي كان سمة من سمات هذا العصر ليس في الرسائل فقط بل في كل مجالات الكتابة النثرية .

(٦) أكثر من الاستشهاد بالآيات القرآنية ، والأبيات الشعرية ، فنوع استشهاداته بين أبيات له ، وبين أبيات لغيره .

(٧) جرى على عادة علماء عصره في ختامه لرسالته ، فاستخدم كلمة " والسلام " .

*****